الفصل الأول
الأكثرية على مستوى السلوك

● **توطئة :**

إن الجوانب السلوكية التي عرضت لها النصوص القرآنية بخصوص الأكثرية كثيرة، منها الفسق، وسوء الأفعال، وإيذاء الخلق، والمسارعة في العدوان والإثم، والإسراف والتقتير، وكثرة القتل وسفك الدماء.

ولما كانت هذه الموضوعات مختلفة بعض الاختلاف، فإن البحث في التفسير الموضوعي التجميعي باعتباره منهجا في التفسير يستهدف سبر أغوار الموضوعات القرآنية للخروج بنظرية فيها أو بتصور سليم حولها يقتضي توزيعها على مباحث تتناول النصوص حسب تناسبها في المعنى، بحيث يفسر بعضها بعضا أو يكمل جزؤها الجزء الآخر، فالإسراف مثلا يعالج مع التقتير لكونهما يتعلقان بالمالية، فالإيذاء مثلا يعالج مع القتل، وإساءة الأعمال مع المسارعة في الإثم والعدوان.

ولما كان الفسق قد تكرر كثيراً، وكان لفظه شاملا فسنخصص له مبحثًا نحلل فيه الآيات لنبرز الظاهرة ونبحث عن أسبابها ونتائجها، وعلى هذا فإن هذا الفصل سيتضمن المباحث التالية :

١ ـ المبحث الأول : الفسق كسلوك للأكثرية

٢ ـ المبحث الثاني : إساءة العمل والمسارعة في الإثم والعدوان.

٣ ـ المبحث الثالث : الإيذاء والقتل.

* * *

● **المبحث الأول : الفسق كسلوك للأكثرية :**

النصوص القرآنية التي تناولت الفسق كمظهر وسلوك من سلوك الأكثرية من جنس البشر تسعة، وهو عدد كبير، شمل الطبيعة البشرية كلها أحيانا كما

في الآية التاسعة والأربعين من سورة المائدة التي جاء فيها قوله تعالى : ﴿ **وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ** ﴾[المائدة:٤٩] وخصص أخرى بأهل الكتاب، كما في قوله تعالى :﴿ **وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾[آل عمران:١١٠] وخصص المشركين ثالثة كما في قوله تعالى : ﴿ **كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾[التوبة:٨] كما خصص المسيحيين رابعة في قوله تعالى :﴿ **ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾ [الحديد : ٢٧] .

ولتعدد النصوص التي تعالج ظاهرة الفسق كمظهر من مظاهر سلوك أغلبية البشرية فإننا سنتناولها بحسب التصنيف السابق بعد أن نبين معنى الفسق لغة واصطلاحا كي يستقيم الشرح والتفسير لهذا الموضوع.

● **معنى الفسق لغة واصطلاحا :**

الفسق أصله في اللغة العربية الخروج عن الشيء ، يقال فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرتها، قال الفراء، الفسق مأخوذ من قولهم فسقت الرطبة أي خرجت من قشرها[١] وقال الأخفش فسق الرجل أي فجر[٢] .

ولا شك أن هذه الدلالة المادية هي أصل للدلالة المعنوية التي استخدمها الإسلام بعد ذلك فقيل : الفاسقون هم الخارجون عن طاعة الله[٣] ، والفسق:

---

(١) لسان العرب مادة فسق .
(٢) تفسير القرطبي : ١/ ٢٤٥ .
(٣) تفسير الجلالين : ص ٧ .

الخروج عن الاهتداء[1] ، قال القرطبي «الفسق في عرف الاستعمال الشرعي: الخروج من طاعة الله عز وجل فقد يقع على من خرج بكفر وعلى من خرج بعصيان»[2] .

وبالنظر إلى تلك المعاني نجد أن الفسق لفظ يوظف للدلالة على المعاني التالية : الفجور، الخروج عن طاعة الله، العصيان، الكفر، وسنلاحظ بناء على ذلك أن المفسرين سيستخدمون هذه الدلالات تبعا للسياق الذي ترد فيه الكلمة لتفسيرها بما يلائم السياق، ذلك لأن الفسق مراتب كثيرة يبلغ بعضها إلى الكفر، وقد أطلق الفسق في الكتاب والسنة على جميعها، لكن الذي يستخلص من الجمع بين الأدلة هو ما اصطلح عليه أهل السنة من المتكلمين والفقهاء وهو أن «الفسق غير الكفر وأن المعاصي وإن كثرت لا تزيل الإيمان وهو الحق وقد لقب الله اليهود في مواضع كثيرة من القرآن بالفاسقين وأحسب أنه المراد هنا»[3] .

* * *

● **المطلب الأول الفسق كسلوك لأكثرية الناس بالجملة :**

يدل صريح النصوص الآتية على أن أكثر الناس فاسقون، قال تعالى:

١ ـ ﴿ **وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ** ﴾[المائدة:٤٩] .

٢ ـ وقال : ﴿ **تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ *وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ** ﴾

[الأعراف:١٠١-١٠٢]

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧ / ٤١٩

(٢) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ١ / ٢٤٦

(٣) التحرير والتنوير ١ / ٣٦٦

٣ ـ وقال : ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾[الحديد :٢٦].

هذه النصوص الثلاث تدل بصريح لفظها على أن أغلبية الناس فاسقون، ولعل النص الأول أكثر وضوحا من جهتين، من جهة العامل الزماني إذ وجه الخطاب ـ بغرض الإخبار ـ إلى النبي محمد ﷺ، وهو خاتم الأنبياء والمرسلين، مما جعل النص أكثر شمولاً لتاريخ البشرية من عهد آدم إلى موعد الفناء. ومن جهة سياق المقال إذ كانت دلالة النص صريحة في استخدام لفظ الناس في قوله تعالى :﴿ **وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ** ﴾[المائدة :٤٩] للشمول، وليس دالا على اليهود وحدهم كما ذكر القرطبي [١].

أما النص الثاني والنص الثالث، فيختلفان بعض الشيء، وإن دلا على الناس جميعا، لأنهما يتحدثان عن تاريخ البشرية من عهد نوح إلى عهد سيدنا موسى عليه السلام، فشرح النص الثاني مشكلة الفسق في تاريخ البشرية عن طريق عرض تاريخ القرى لينتهي إلى النتيجة التالية ﴿ **وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ** ﴾[الأعراف :١٠٢] بينما يشرح النص الثالث مواقف البشرية من مسألة الهداية من عهد نوح وإبراهيم والنبيين من ذريتهما ليقف على النتيجة التالية :﴿ **فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾[الحديد :٢٦].

فالنتيجة في الآيات الثلاث واحدة من حيث أن الأغلبية فاسقة، على الرغم من اختلاف الأزمنة التي تتحدث عنها الآيات، مما يدل على أن الطبيعة البشرية لا تختلف من جهة السلوك والأخلاق، قال قطب :«إنها طبيعة البشر: ﴿ **وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ** ﴾[المائدة :٤٩] فهم يخرجون وينحرفون، لأنهم هكذا ولا حيلة لك في هذا الأمر، ولا ذنب للشريعة ولا سبيل لاستقامتهم على الطريق»[٢].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٦/٢١٤

(٢) قطب : في ظلال القرآن ٢/٩٠٣

والفسق في الآية الأولى العصيان والخروج عن الطاعة، إذ يفهم من الآية ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴾[المائدة: ٤٩] أن الفسق هنا شارح للذنوب، قال الصابوني: «أي أكثر الناس خارجون عن طاعة ربهم مخالفون للحق منهمكون في المعاصي»(١) بينما ينصرف المعنى في قوله تعالى ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴾[الأعراف: ١٠٢] إلى الدلالة على مخالفة الفطرة التي فطر الله الناس عليها من الإيمان، قال ابن كثير: «أي ولقد وجدنا أكثرهم فاسقين خارجين عن الطاعة والامتثال، والعهد الذي أخذه هو ما جبلهم عليه وفطرهم عليه وأخذ عليهم في الأصلاب أنه ربهم ومليكهم وأنه لا إله إلا هو، وأقروا بذلك وشهدوا على أنفسهم به وخالفوه وتركوه وراء ظهورهم وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولا حجة لا من عقل ولا من شرع، وفي الفطر السليمة خلاف ذلك ... وفي الصحيحين: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أوينصرانه أويمجسانه»(٢،٣).

ويتجاوز قطب هذه الدلالة للعهد إلى احتمال آخر فيقول «والعهد الذي يشار إليه هنا قد يكون هو عهد الله على فطرة البشر الذي ورد ذكره في أواخر السورة: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ﴾[الأعراف: ١٧٣]، وقد يكون هو عهد الإيمان الذي أعطاه أسلافهم الذين آمنوا بالرسل، ثم انحرفت الخلائق كما يقع في كل جاهلية، إذ تظل الأجيال تنحرف شيئا فشيئا حتى تخرج من عهد الإيمان وترتد إلى الجاهلية .. وأيا كان العهد فقد تبين أن أهل هذه القرى لا عهد لأكثرهم يستمسكون به، ويثبتون عليه، إنما هو الهدى المنقلب، والطبيعة التي لا تصبر على تكاليف العهد ولا تستقيم»(٤).

---

(١) صفوة التفاسير ١ / ٣٤٧

(٢) الحديث أخرجه الشيخان

(٣) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٢ / ٢٣٥

(٤) في ظلال القرآن ٣ / ١٣٤٢

وبناء عليه فقد فسر الفسق هنا على أنه انحراف في العقيدة، قال قطب «﴿وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾[الأعراف:١٠٢] منحرفين عن دين الله وعهده القديم، وهذه ثمرة التقلب ونقض العهد واتباع الهوى، ومن لم يمسك نفسه على عهده مع الله مستقيما على طريقته، مسترشدا بهداه، فلا بد أن تتفرق به السبل، ولا بد أن ينحرف، ولا بد أن يفسق... وكذلك كان أهل تلك القرى وكذلك انتهى بهم المطاف»[١].

والفسق في الآية الثالثة ـ أي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[الحديد:٢٦] ـ وظف في مقابل الهداية، كما وظف في الآية السابقة في مقابل العهد، ليدل على ضدهما ومن ثم انصرفت دلالته هنا إلى الجانب العقدي بحيث يمكن القول أن المعنى: فمنهم قليل اهتدى وكثير منهم ضل عن الطريق المستقيم، قال ابن عاشور: «والفسق: الخروج عن الاهتداء، ومن الفاسقين: المشركون من عاد وثمود وقوم لوط من اليمن والأوس والخزرج وهم من ذرية نوح، ومن مدين والحجاز وتهامة وهم من ذرية إبراهيم، والمراد من أشركوا قبل مجيء الإسلام لقوله: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الحديد:٢٧]»[٢].

وعلى الجملة فإن الآيات الثلاث تدل على أن الأكثرية فاسقة، وأن هذا هو دين البشرية، وإليه أشار الزمخشري بقوله: «فمنهم مهتد ومنهم فاسق والغلبة للفساق»[٣]، وقد دل الفسق في الآيات الثلاث على دلالات مختلفة هي الخروج عن الطاعة ومخالفة العهد والضلال، وهي كلها سلوك مخالف لرسالات الأنبياء والمرسلين لذلك أطلق عليها هنا مصطلح الفسق على الرغم من دلالتها أحيانا على العقيدة وأخرى شاملة للعصيان كله.

---

(١) نفسه

(٢) التحرير والتنوير ٢٦/ ٤١٩

(٣) الكشاف ٤/ ٦٧

والآن يمكن أن نتساءل ما الذي دفع البشرية إلى هذا النزوع الغريب بحيث يصبح الفسق هو طابع الأغلبية والامتثال لأمر الله هو طابع الأقلية ﴿ **فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾[الحديد :٢٦] ؟

● **دوافع الفسق :**

الظاهر أن الفسق باعتباره عصيانا وخروجا عن الطاعة بدايته نزغات الشياطين لقوله تعالى إخبارا عن إبليس عليه اللعنة : ﴿ **أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ** ﴾ [يس :٦٠-٦٢] .

فالآية صريحة في أن الشيطان قد أضل خلقا كثيرا بسبب غياب العقل الفاعل والوعي السليم الذي يدرك عمق التهديد والوعيد الذي توعد به الشيطان بني آدم جميعا، بأن يغويهم ويضلهم ضلالا كبيرا بالإجماع، فلم يستثن منهم سوى المخلصين، وهم يمثلون خلاصة أهل الإخلاص كما بينا سابقا، قال تعالى : ﴿ **قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** ﴾[ص :٨٢-٨٣] وقال على لسانه :﴿ **أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾[سورة الاسراء :٦٢]. فالشيطان توعد أبناء آدم بالاحتناك، وهو الاستئصال بالإغواء[١] إلا القلة التي أخلصت دينها لله واستمسكت بحبله المتين، قال قطب « إنه يقسم بعزة الله ليغوين جميع الآدميين، لا يستثني إلا من ليس له عليهم سلطان، لا تطوعًا منه ولكن عجزًا عن بلوغ غايته فيهم، ولهذا يكشف عن الحاجز بينه وبين الناجين من غوايته وكيده، والعاصم الذي يحول بينهم وبينه، إنه عبادة الله التي تخلصهم لله، هذا هو طوق النجاة وحبل الحياة »[٢] .

---

(١) الجلالين : ٢٧٩

(٢) في ظلال القرآن ٢٥ /٣٠٢٨

ولكن نزغات الشيطان لم تكن لتبلغ هذا التأثير الكبير في البشرية بحيث تجعل الأكثرية من الفاسقين إلا لوجود استعداد في طبيعة أبناء آدم، اكتسبوه من التهاون في تجاوز حدود الله، فصار خُلُقا وطبعا، يساقون منه كالأنعام بمجرد الغواية التي يقوم بها الشيطان عن طريق تزيين القبائح والمحرمات، وربما كان على رأس هذه الاستعدادات حب الشهوات، وقد بين القرآن ذلك، فقال تعالى: ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ** ﴾[آل عمران: ١٤] ثم حب المال قال تعالى: ﴿ **وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا** ﴾[الفجر: ٢٠]، وحب الخير مطلقا: ﴿ **وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ** ﴾[العاديات: ٨] فهذه العوامل النفسية والاقتصادية قوية جدا في دفع الإنسان نحو العصيان والفسق، بحيث لو تأملنا الحياة لوجدنا سلوك البشرية تتحكم فيه هذه العوامل تحكما قويا، سواء على مستوى الأفراد -إلا قليلا من المتقين- أو على مستوى الأمم والدول والشعوب، بحيث نلاحظ أن معظم صور التناحر والتقاتل لا تخرج عن هذه الأسباب؛ إما الشهوات وإما حب الخير، إن على مستوى الأفراد أو على مستوى الدول والشعوب، حتى بالغ بعضهم في التركيز على ذلك ففسر سلوك البشر بالحاجة وفسره أخرى بالغريزة الجنسية.

وقد وجد الشيطان في هذا الاستعداد أداة فعالة ليحتنك ذرية آدم ويغويها، ليجعل منها هذه الكثرة الفاسقة، ومنه نستنتج أن الدافع إلى هذا النزوع الغريب مركب من عنصرين؛ عنصر خارجي هو الشيطان وعنصر ذاتي هو حب الشهوات والتهالك على جمع الخيرات، ولهذا السبب كانت بعض الآيات تنسب العصيان إلى الشهوات مباشرة كما في قوله تعالى: ﴿ **وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا** ﴾[النساء: ٢٧] وقوله: ﴿ **فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ** ﴾ [مريم: ٥٩]، وقوله: ﴿ **فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ** ﴾[القصص: ٥٠]، فالاتباع في الآيات كان للشهوات وليس للشيطان، بينما نجد آيات أخرى تنسب الاتباع للشيطان كما في قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾[النور:٢١] وقوله: ﴿ ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ [البقرة : ٢٠٨]، وقوله ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [النساء:٨٣].

وهكذا يتجلى لنا أن النزوع إلى الفسق سببه مركب من العنصرين معا، وليس من عنصر واحد، مما يفرض على الإنسان أن يحرص على مراقبة نفسه من جهتين ، فيستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، ويستعين به للتغلب على الشهوات وضراوتها لا سيما حب النساء وحب المال والخير.

ثم إن الفسق في حد ذاته يعد من أكبر العوامل المساعدة على تجذيره في النفس، مما يقوي أصحابه ويدفعهم إلى نشر دعوة الفسق، كما تبين الآية: ﴿ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا ﴾[النساء:٢٧] فالذين يتبعون الشهوات من الفساق والفجار والعصاة من شأنهم أن يزينوا للناس الميل نحو منهجهم وطريقتهم لتنعدم المعارضة التي تحول دون رغباتهم وشهواتهم، وبذلك يكثر حزب الفساق يقول قطب: «وأما ما يريده الذين يتبعون الشهوات فهو أن يطلقوا الغرائز من كل عقال؛ ديني، أو أخلاقي، أو اجتماعي، يريدون أن ينطلق السعار الجنسي المحموم بلا حاجز ولا كابح من أي لو كان السعار المحموم الذي لا يقر معه قلب، ولا يسكن معه عصب ولا يطمئن معه بيت، ولا يسلم معه عرض، ولا تقوم معه أسرة، يريدون أن يعود الآدميون قطعانا من البهائم ... قد كانوا يبذلون جهدهم لرد المجتمع المسلم إلى الجاهلية في هذا المجال الأخلاقي»(١) .

وقد بين ابن عاشور بيانا شافيا العلاقة بين زيادة الفسق وزيادة الضلال حين قال بصدد تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ ﴾ [البقرة:٢٦] : «إن

(١) في ظلال القرآن ٢ / ٥ / ٦٣١-٦٣٢

للفسق تأثيراً في زيادة الضلال لأن الفسق يرين على القلوب، ويكسب النفوس ظلمة فتتساقط في الضلال المرة بعد الأخرى على التعاقب، حتى يصير لها دربة، وهذا الذي يؤذن به التعليق على الوصف المشتق إن كان المراد به هنا المعنى الاشتقاقي، فكأنه قيل: هؤلاء فاسقون، وما من فاسق إلا وهو ضال فما ثبت الضلال إلا بثبوت الفسق »[1].

ولا شك أن الطبيعة الإنسانية مجبولة على حب الانتقام تماما كما فعل الشيطان حينما قرر احتناك ذرية آدم انتقاما منه، مما يجعل الفساق يرغبون رغبة شديدة في الانتقام من المصلحين والتقاة، فيعمدون إلى الكيد لهم ليميلوا عن الحق ميلا عظيما، حتى يصيروا على حالهم فيتشاكلون جميعا، وبذلك يكثر الفساق ويتزايد عددهم.

وقد بين سيد قطب دور الفسق كدافع على الانتقام، يضاف لدافعين آخرين هما: الحسد الذي يكنه الفجار للمؤمنين بسبب إيمانهم، والغيرة التي تلهب قلوبهم بسبب ما نزل من القرآن وهو الحق، فقال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨]: «فهذا الفسق هو شطر الباعث؛ فالفسق يحمل صاحبه على النقمة من المستقيم.. وهي قاعدة نفسية واقعية، تثبتها هذه اللفتة القرآنية العجيبة إن الذي يفسق عن الطريق وينحرف لا يطيق أن يرى المستقيم على النهج الملتزم.. إن وجوده يشغره دائما بفسقه وانحرافه، ومن ثم يكرهه وينتقم عليه، يكره استقامته وينقم منه التزامه، ويسعى جاهداً لجره إلى طريقه، أوللقضاء عليه إذا استعصى قياده؛ إنها قاعدة مطردة، تتجاوز موقف أهل الكتاب من الجماعة المسلمة...إلى موقف كل فاسق منحرف من كل عصبية ملتزمة مستقيمة، والحرب المشبوبة دائما على الخيرين في مجتمع الأشرار، وعلى المستقيمين في مجتمع الفاسقين، وعلى الملتزمين في مجتمع المنحرفين، هذه الحرب أمر طبيعي تستند إلى هذه القاعدة التي يصورها النص القرآني العجيب »[2].

---

(١) التحرير والتنوير ١ / ٣٦٦ (٢) في ظلال القرآن ٢ /٦/ ٩٢٦

وخلاصة هذا المطلب أن الفسق يعد خلقًا يطبع سلوك أكثرية الناس، وقد بينت الآيات ذلك، مما يجعل ذلك قاعدة وقانونا يحكم تاريخ البشرية ويفسر حقيقة القرون والأمم الكثيرة التي استأصلها الله سبحانه وتعالى عدلاً وتطهيراً للأرض من المفسدين، وقد صيغ هذا القانون في سورة المائدة بقوله تعالى: ﴿ **وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ** ﴾[المائدة:٤٩] ، وقد تبين من التحليل وتفسير الآيات أن من أسباب هذه الزيادة المفرطة من أهل الفسق عامة تنافس الناس على العصيان وتشجيع بعضهم بعضاً عليه أستكثاراً لأهل الشر، حماية لأنفسهم ومنهجهم، وتدعيماً لسلطانهم في الأرض فضلا عن الدور الذي يقوم به الشيطان في احتناك ذرية آدم انتقاماً لنفسه.

ولكن هذه القاعدة العامة التي استنتجناها من آية المائدة وآية الحديد وآية الأعراف، والتي تكشف لنا عن قانون شامل لتفسير تاريخ البشرية من لدن نوح عليه السلام إلى يومنا هذا لا تكفي لتفسير الظواهر الجزئية في الأكثرية النسبية في دائرة الطوائف المختلفة من أهل الكتاب عامة [1] والمشركين خاصة ، وهو ما سنتناوله في المطالب الموالية .

* * *

● **المطلب الثاني الفسق كسلوك لأكثرية أهل الكتاب خاصة:**

تضمن القرآن الكريم أربعة نصوص صريحة الدلالة على أن الفسق يعد مظهرا سلوكيا لأكثرية أهل الكتاب بصفة عامة؛ اليهود والمسيحيون، وهذه النصوص هي:

١ ـ قال تعالى : ﴿ **وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ [آل عمران :١١٠] .

٢ ـ وقال : ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ** ﴾ [المائدة: ٥٩] .

---

(١) التحرير والتنوير ٣/٥٢

٣ ـ وقال :﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيراً مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾[المائدة: ٨١] .

٤ ـ وقال :﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾[الحديد : ١٦] .

كل هذه النصوص تعبر عن ظاهرة الفسق كمظهر يعم أغلبية أهل الكتاب، وهي ظاهرة مشاهدة عيانا في العصر الحديث، بحيث يغني الحال عن السؤال، سواء أكان الفسق بمعناه الاعتقادي أو بمعناه الفعلي والعملي.

ولفظ الفسق في النصوص الأربعة يغطي هذه الدلالات المختلفة، بحيث نجده قد وظف في الآية الأولى والثانية في مقابل الإيمان ﴿ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾[آل عمران: ١١٠] ليدل على أن أكثر أهل الكتاب قد فسقوا عقديًا، إذ الفسق في هذه الآية كما جاء في تفسير الجلالين معناه عدم قبول الإيمان، وقد عبر عن الكفر بالفسق لأنه لازم عنه[١] ، وقال قطب :« وآية فسقهم وانحرافهم أنهم لا يؤمنون بالرسالة الأخيرة وهي مصدقة لما بين أيديهم لا ما ابتدعوه وحرفوه، ولا يؤمنون بالرسول الأخير وهو مصدق لما بين يديه معظم رسل الله أجمعين »[٢] .

أما في الآية الثالثة فقد وظف لفظ الفسق تفسيراً للولاء مما يدل على أنه بمعنى العصيان المتمثل في الانتماء لدائرة أهل الكفر من المشركين والملحدين، ويبين ذلك سياق الآية من قوله تعالى : ﴿ تَرَىٰ كَثِيراً مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ * وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيراً مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾[المائدة: ٨٠ – ٨١] ، فالآيتان هنا تحددان المجال الأساسي لولاء أهل

---

(١) تفسير الجلالين : ١٥٤

(٢) في ظلال القرآن : ٢/٦/٩٢٤

الكتاب، وتحصرانه في هؤلاء الكثير الذين كفروا ﴿ **تَرَىٰ كَثِيراً مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾[المائدة: ٨٠] ثم تجيء بتعليل ذلك فتبين أنهم يتولون الكفار بهذه الكثرة، لأنهم أساسا لم يؤمنوا بالله والنبي والقرآن المنزل عليه، إذ لو كانوا يؤمنون ما اتخذوهم أولياء، ثم تأتي خاتمة التعليل ﴿ **لَكِنَّ كَثِيراً مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾[المائدة: ٨١] معتمدة على لفظ الاستدراك « ولكن » ولفظ «الفسق»، الذي يطلق على السلوك العملي أساسا ويأتي مجازا للدلالة على العقيدة؛ لأنه يلازمها كما تبين ذلك آية الأعراف التي تنص على الترابط القائم بين تغيير النفس وتغيير السلوك والأحوال ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾[الرعد: ١١]، وبهذا يكون التعليل النهائي ﴿ **وَلَكِنَّ كَثِيراً مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾[المائدة: ٨١] قد بين أن علة الولاء تكمن في الفسق، بمعناه الشامل للعقيدة والسلوك العملي، فبسبب أنهم فاسقون كان ولاءهم للذين كفروا أمرا طبيعيا لانسجامهم مع بعضهم أصلا. قال قطب « هذه هي العلة إنهم لم يؤمنوا بالله والنبي، وإن كثرتهم فاسقة، إنهم يتجانسون - إذن - مع الذين كفروا في الشعور والوجهة، فلا جرم يتولون الذين كفروا ولا يتولون المؤمنين »(١).

وقد وظف لفظ الفسق في قوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾[الحديد: ١٦] للدلالة على كثرة الأعمال الفاسدة التي نجمت عن قساوة القلب نتيجة طول ابتعاد أهل الكتاب عن وسائل الذكر من قراءة الكتاب ومجالسة العلماء والاستماع إلى الوعاظ والمرشدين وأهل التقوى والورع، قال ابن كثير « كثير منهم فاسقون أي في الأعمال، فقلوبهم فاسدة وأعمالهم باطلة »(٢).

---

(١) في ظلال القرآن ٢/٦/٩٥٢ (٢) تفسير القرآن العظيم ٤/٣١٠

ومن مجمل الدلالات في الآيات الأربعة يتبين أن لفظ الفسق ورد هنا ليدل على ما صدر من أغلبية أهل الكتاب من فسق في العقيدة وفي الأعمال، وقد بينا الترابط القائم بينهما وكيف يحل لفظ الفسق الذي هو دال على السلوك العملي أساسا محل لفظ الكفر ملازما له، كما أن الاستقامة ملازمة للإيمان، قال قطب «ليس وراء قسوة القلوب إلا الفسق والخروج»[1].

والآن ما السبب في أن يكثر الفسق في أهل الكتاب، وقد كان الأجدر بهم أن يكونوا أهل استقامة وصلاح؟

● **علة كثرة الفساق من أهل الكتاب:**

ذكر القرطبي وابن كثير رأيًا نسبوه لابن مسعود في تفسير آية الحديد السابقة يرجع فيه سبب كثرة الفسق في أهل الكتاب إلى الابتعاد عن كتاب الله وأصول الذكر، فقال القرطبي: «كان الحق يحول بينهم وبين كثير من شهواتهم، حتى نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون»[2] وقال ابن كثير: «نهى الله تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى لما تطاول عليهم الأمد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم واشتروا به ثمنًا قليلا ونبذوه وراء ظهورهم وأقبلوا على الآراء المختلفة والأقوال المؤتفكة، وقلدوا الرجال في دين الله واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، فعند ذاك قست قلوبهم فلا يقبلون موعظة ولا تلين قلوبهم بوعد ولا وعيد، وكثير منهم فاسقون، أي في الأعمال، فقلوبهم فاسدة وأعمالهم باطلة»[3].

وقال الزمخشري: «قيل كانوا - أي المسلمين - مجُدَبين بمكة فلما هاجروا أصابوا الرزق والنعمة ففتروا عما كانوا عليه فنزلت، وعن ابن مسعود ما كان بين إيلاجنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنين» ويجوز أن يكون نهيًا لهم عن

---

(١) في ظلال القرآن ٦/٢٧/٣٤٨٩

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٧/٢٥٠

(٣) تفسير القرآن العظيم ٤/٣١٠

مماثلة أهل الكتاب في قسوة القلوب بعد أن وبخوا، ذلك أن بني إسرائيل كان الحق يحول بينهم وبين شهواتهم، وإذا سمعوا التوراة والإنجيل خشعوا لله ورقت قلوبهم فلما طال عليهم الزمان غلبهم الجفاء والقسوة واختلفوا وأحدثوا ما أحدثوا من التحريف وغيره[1].

كل هذه الآراء تتفق على أن غلبة الفسق على بني إسرائيل سببها هجرة الكتاب ووسائل التذكير لمدة طويلة، فالحق والذكر هو السبيل الذي يحول بين الإنسان وبين اتباع الشهوات فإذا هجروه لزمن كاف لإحداث النسيان تحررت النفوس من الضوابط الشرعية وأقبلت على الفسق بنهم شديد مما يجعل أهله كثيرين.

وقد رأيت بنفسي وعشت تجربة المجتمع الجزائري المريرة في فتنة التسعينات من هذا القرن، إذ كان الشباب يقبل على الإسلام والصلاح بكثرة ملفتة للانتباه، وذلك حين قيض الله للشعب الجزائري رئيسا صالحا سمح للدعاة بالذكر والدعوة إلى الحق في السر والعلانية، فكثر الدعاة وتنافس أهل العلم والخير على تشجيع الناس على ذلك، فكثر الإقبال على المساجد فامتلأت، ثم فتح لهم ذلك الرئيس الصالح مجال المشاركة في الانتخابات ففازت أحزابهم فوزاً عظيماً، فلما رأى المسيحيون في الغرب ذلك الأمر أفزعهم حتى عقدوا له جلسات مناقشة في التلفزة الفرنسية على الخصوص، وقد سمعت خبيراً لهم يقول بعد أن سئل في خاتمة الجلسة الحوارية التي حضرها معظم رؤساء الأحزاب الجزائرية المتنافسة : «إن ما يحدث في الجزائر أمر خطير، ومرض كبير ستنتشر عدواه لتعم دول البحر الأبيض المتوسط».

ومنذ ذلك الحين شرعت ذول الغرب المسيحي واليهودي معًا بجد للقضاء على تلك الصحوة، واختلفت أسباب الفتنة وأُبعد الرئيس المؤمن عن رئاسة

---

(١) الكشاف ٤/ ٦٤

الدولة الجزائرية وجيء بمن خلفه للقضاء على وسائل الدعوة فسُجن السياسيون، وقُتل خلق كثير يتجاوز مائة ألف شاب، ومنع الشعب من زيادة بناء المساجد، وكممت الأفواه وصودرت الصحف الإسلامية، وحرمت حلقات الذكر ومنابر الدعوة فأخذت المساجد تخلوا من المصلين، وبدأ الزي الإسلامي يقل، حتى صار عدد المتحجبات من الطالبات والتلميذات قليلا جداً، إذا ما قورن بما كان عليه في الثمانينات من عهد الرئيس المؤمن، وبدأت ألوان الفسق تبرز على السطح جهاراً نهاراً، حتى شرع بعض المفلسين في إعادة فتح بيوت الفسق التي أغلقت، وحانات الخمر التي أقفلت، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وعلى هذا فإني أحسب أن طول الأمد يعد عاملا أساسيا في تغيير النفوس، ومن ثم تغيير السلوك، مما يؤدي إلى كثرة الفساق، على أن السؤال المطروح الآن هو : كم تكون هذه المدة الكافية لحصول هذا التغيير؟.

● **مقدار المدة الكافية لتحول المجتمعات :**

لقد لاحظنا في نص سابق أن الزمخشري يذكر أن المسلمين عوتبوا على بداية ظهور بوادر ضعف الخشوع، ولم يمض على إسلامهم سوى أربع سنين أو ثلاث عشرة سنة قال :«عن ابن مسعود ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية ـ يعني﴿ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ**... ﴾[الحديد :١٦] أربع سنين، وعن ابن عباس رضي الله عنهما : استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة من نزول القرآن » فالمدة التي يذكرها الزمخشري هنا تتراوح بين أربع سنين وثلاث عشرة، وإذ نظرنا إلى تجربتنا في الجزائر نجد أن العشرية الحمراء ١٩٩٠–٢٠٠٠، كانت كافية لإحداث تغيير كبير في السلوك، حتى ظهرت بوادر الفسق حتى في أبناء كثير من البيوت التي كان لها شأنها في الدعوة، وذلك لأن السنوات العشر قد حالت دون توجيه جيل بأكمله من الشباب إلى المساجد، فكان كل الأطفال الذين مرت فترة مراهقتهم في هذه العشرية الحمراء محرومين من الوعظ والإرشاد بسبب منع حلقات الذكر،

مما جعلهم يبلغون العشرين وأكثر من ذلك أو أقل، وهم بعيدون عن التربية الإسلامية، فكان الانحراف نتيجة طبيعية لذلك الأمد الطويل الذي حيل فيه بينهم وبين وسائل الذكر، ذلك لأن «القلب البشري سريع التقلب سريع النسيان وهو يشف ويشرق فيفيض بالنور، ويرق كالشعاع فإذا طال عليه الأمد بلا تذكير ولا تذكر تبلد وقسا، وانطمست إشراقته وأظلم وأعتم ؛ فلا بد من تذكير هذا القلب حتى يذكر ويخشع، ولا بد من الطرق عليه حتى يرق ويشف، ولا بد من اليقظة الدائمة كي لا يصيبه التبلد والقساوة ... وليس وراء قسوة القلوب إلا الفسق والخروج»[1] .

وقد وردت الإشارة إلى دور طول المدة في الابتعاد عن أسباب التذكر في القرآن مرات عديدة منها قوله تعالى :

١ ـ ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي * قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴾[طه :٨٦-٨٧] .

٢ ـ وقال تعالى : ﴿ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ * أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ * بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ﴾[الأنبياء : ٤٢-٤٤] .

٣ ـ وقال : ﴿ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ * وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ﴾[القصص :٤٣-٤٤] .

---

(١) في ظلال القرآن ٦/٢٧/٣٤٨٩

فالجمل : ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ ﴾[طه:٨٦] ﴿ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ﴾[الأنبياء: ٤٤] ﴿ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ﴾[القصص :٤٤] ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾[الحديد : ١٦] كلها تصب في دلالة واحدة، وهي أنهم قد طالت هجرتهم للكتاب أوطالت مفارقتهم للمصلحين، فنسوا العهود واندرست العلوم وانقطع الوحي[١] ، إما بطول الزمان وحده وإما يطول الزمان مع متعة الرخاء والرفاه والازدهار في غياب الذكر مما يرسم علامات الغرور بتلك المتعة[٢]، بقصد منهم أو بغير قصد، كما يتبين من آيتي سورة طه وسورة الانبياء السابقة.

ومن البين الواضح أن كل الآيات باستثناء آية سورة الأنبياء تتحدث عن بني إسرائيل كنموذج لمن يؤثر فيه طول الزمن بالنسيان للعهود والمواثيق؛ مما يؤدي إلى انتشار الفسق والفجور، ولكن كون الآيات الثلاث الأخرى تتناول بني إسرائيل وآية واحدة تتحدث عن العرب في الجزيرة العربية لا يعني أن هذه صفة تخص هؤلاء، وإنما الأرجح أن النسيان أوضح فيهم من غيرهم، وإلا فهو مرض من أمراض البشرية كلها ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [الحشر:١٩]

والمفسرون الذين توقفوا عند هذه الآيات يتفقون على أن طول العمر أو طول العهد أو طول الأمد كلها عبارات ذكرت في القرآن لبيان أثر ابتعاد الإنسان عن وسائل التذكير في حصول النسيان، قال الزمخشري في تفسير قوله تعالى ﴿ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ﴾ [القصص :٤٤] «معناه : ولكنا أنشأنا بعد عهد الوحي إلى عهدك قرونا كثيرة فتطاول على آخرهم وهو القرن الذي أنت فيهم ـ العمر ، أي أمد انقطاع الوحي ، واندرست العلوم فوجب إرسالك إليهم فأرسلناك وكسيناك العلم بقصص الأنبياء»[٣].

(١) الجلالين: ٤٨١-٥١٧ (٢) نفسه: ٤٣١
(٣) الكشاف ٣/ ١٨٢

وقال القرطبي :« أنشأنا قرونا من بعد موسى فتطاول عليهم حتى نسوا ذكر الله أي عهده وأمره، نظيره ﴿ **فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ** ﴾[الحديد :١٦] وظاهر هذا يوجب أن يكون جرى لنبينا عليه السلام ذكر في ذلك الوقت، وأن الله سيبعثه، ولكن طالت المدة وغلبت القسوة فنسي القوم، وقيل آتينا موسى الكتاب وأخذنا على قومه العهود، ثم تطاول العهد فكفروا فأرسلنا محمداً مجددا للدين وداعيا الخلق إليه »[١] .

إن المفسرين يتفقون على أن تطاول المدة بمنأى الأفراد والمجتمعات عن شتى وسائل التذكير بالحق والدين والخير والخلق الحسن من شأنه أن يؤدي إلى النسيان وقساوة القلوب وتبلد الإحساس بكل أسباب الذكر، وغير ذلك مما يفسد حتى الفطرة السليمة والمنطق الصحيح، والعقل الراجح وبذلك تعم البلوى المجتمعات ويكثر الفسق بكثرة الشياطين، تماما كما قال ابن حزم : « بلا شك أن أهل الباطل كلما كثروا فإن الشيطان أقوى فيهم منه مع المنفرد »[٢] .

ثم إن طول الأمد في الابتعاد عن وسائل التذكير لا ينهض وحده كعامل فعال في إحداث قساوة القلب والنسيان للعهود والمواثيق، بل يستصحب معه عاملا آخر فعالاً في عملية الإفساد هذه، وهو « الترف »،ولذلك جاءت الآية ﴿ **بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ** ﴾[الأنبياء:٤٤] مبينة للعلاقة بين العاملين عامل طول الأمد وعامل المتعة والترف بمعزل عن وسائل إحياء القلوب، فالآية بصيغتها هذه جاءت بمثابة تعليل للإعراض عن ذكر الله من قوله تعالى :﴿ **بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ * أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ * بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ** ﴾[الأنبياء: ٤٢-٤٤] فالمتعة والترف كما عبرت عنه الآية استغرق

---

(١) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ١٣ / ٢٩١

(٢) الإحكام في أصول الأحكام ١ / ٥٤٩

مدة طويلة غطت أجيالا من الأبناء والآباء، مما أنسى الناس في الحق ودفعهم إلى الإعراض عن الذكر، قال القرطبي :« أي بسطنا لهم ولآبائهم في نعيمها، وطال عليهم العمر في النعمة فظنوا أنها لا تزول عنهم فاغتروا وأعرضوا عن تدبر حجج الله عز وجل »[1] ، وقال قطب : « فهو المتاع الطويل الموروث الذي أفسد فطرتهم والمتاع ترف، والترف يفسد القلب ويبلد الحس، وينتهي إلى ضعف الحساسية بالله وانطماس البصيرة دون تأمل آياته، وهذا هو الابتلاء بالنعمة حتى لا يستيقظ الإنسان لنفسه ويراقبها ويصلها دائما بالله فلا ننساه »[2] ويؤكد ذلك قوله تعالى :﴿ **وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ** ﴾[الشورى : ٢٧] .

وبهذا يجتمع لدينا في الواقع عاملان كبيران لهما أثرهما القوي في إفساد المجتمعات طول أمد سكوت الأئمة والمصلحين عن كلمة الحق ونشر الوعي والاجتهاد في الدعوة إلى دين الله ، وتذكير الخلق بمدلول الرسالات السماوية وأهدافها، وطول أمد عيش المجتمعات والأفراد في الترف والنعيم، فهذان العاملان إذا وجدا معا في مجتمع واحد مجتمعين أو منفردين من شأنهما أن يؤثرا سلبًا على القلوب فتكل جراء ذلك وتعمى عن الحق و « القلوب إذا كلت عميت »[3] .

وخلاصة القول أن السبب المباشر في كثرة الفسق والفجور إنما هو النسيان الناشئ عن تطاول عهد الناس في بعدهم عن الذكر ووسائله مما يؤدي إلى قساوة القلوب، والقلوب إذا بلغت ذلك ليس من ورائها سوى الفسق والفجور .

ولما كان سكوت الأئمة عن الدعوة لأسباب طبيعية كالترف ﴿ **وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ** ﴾[فصلت : ٥١] أو لأسباب سياسية كالسلطان

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١١ / ٢٩٢

(٢) في ظلال القرآن ٤ / ٢٣٨٠

(٣) الأثر

الجائر، أو لأسباب ثقافية كالنزعات السياسية الغربية متمثلة في فكرة فصل الدين عن الدولة ـ أقول لما كان سكوت الأئمة لهذه الأسباب الموضوعية شاملا وفعالا في هجر القرآن وأسباب الذكر فإن كل ذلك من شأنه أن يترجم بطول العهد أو طول الأمد أو طول العمر، ويكشف عن دوره في النسيان، مما يؤدي إلى تفشي ظاهرة الفسق ومن ثم كثرة الفاسقين، ولهذا كانت الآيات التي تحدثت عن الأكثرية في مجال السلوك قد نصت على كثرة الفاسقين، كما في قوله تعالى: ﴿**وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ**﴾[الأعراف: ١٠٢].

وعندئذ يمكن القول بأن سبب كثرة الفسق في أهل الكتاب – وإن كان الأجدر بهم ألا يكونوا كذلك ـ هو طول زمن بعدهم عن الكتاب، حتى صاروا متساوين مع من لم يكونوا أهل كتاب، فهم سواء في انتشار الفساد والفسق في أوساطهم الاجتماعية والسياسية والثقافية والفكرية، ومن هنا جاء تنبيه القرآن الكريم للمسلمين على خطورة هذه الظاهرة بقوله تعالى: ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ**﴾ [الحديد: ١٦]، ثم جاء تنبيه هام لدور الكتاب في التذكير فقال: ﴿**وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**﴾[القصص: ٥١]، وعلى أن المسيحيين من أهل الكتاب، فإن النصوص السابقة تشملهم، ولكن مع ذلك هناك نص يخصصهم هو قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ**﴾ [الحديد: ٢٧]

هذه الآية من سورة الحديد تلي الآية السابقة التي شملت قروناً كثيرة بدءاً من سيدنا نوح وإبراهيم عليهما السلام إلى ذريتهما، وتنتهي بالإشارة إلى أن

ظاهرة الفسق متفشية في الإنسانية كلها، وبذلك ضمت أهل الكتاب، والآية هي: ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾ [الحديد :٢٦] .

ومعنى ذلك أن آيتي الحديد الآية ٢٦ والآية ٢٧، تتحدثان عن ظاهرة واحدة متفشية في وسطين من الأوساط ما كان ينبغي أن تتفشى فيهما لوجود أسباب المناعة وهي الكتب التي أنزلها الله لإصلاح حال البشرية، فإن لم تنتفع تلك الشعوب بهذه الكتب فثمة سر هو الذي أرجعته الآيات السابقة لطول العهد وانتشار الترف،أي أنه لا يرجع في جميع الأحوال إلى الجهل بالحدود الشرعية،لأن هؤلاء جميعا هم من أهل الكتاب.

وإذا كان الضمير في قوله تعالى: ﴿ **فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾ [الحديد :٢٧] يعود لأتباع سيدنا عيسى عليه السلام خاصة، فمعنى ذلك أن الآية هنا حددت الأكثرية الفاسقة في دائرة معينة هي دائرة المسيحيين.

وهكذا يتبين التناغم القائم بين جميع النصوص التي تعرضت لهذه الظاهرة سواء بالنسبة للناس كافة، أو بالنسبة لأهل الكتاب عامة أو المسيحيين منهم خاصة، إذ النتيجة واحدة وهي ﴿ **فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾ [الحديد :٢٦]

* * *

● المبحث الثاني: إساءة العمل والمسارعة في الإثم والعدوان:

لاشك أن لفظ الفسق يشمل السلوك البشري كله ما يتعلق بالفكر وما يتعلق بالعمل، ولكن مع ذلك فإن هناك نصوصًا تتحدث عن إساءة العمل كسلوك للأكثرية، وأخرى تتحدث عما هو أدهى وأمر وهو المسارعة في الإثم والعدوان والتنافس في ذلك عند الأغلبية.